أمر لسيات :

ابن بسام صاحب الذخيرة
والشاعر أبو مروان الطُّبْنى
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

وما دمنا قد ترجمنا للفتح بن خاقان صاحب مطمح الأنفس وقلائد العقيان ، وقد بان لك من هذه الترجمة أن ابن بسام كان معاصراً للفتح ، وأنهما يتشابهان من وجوه شتى إن لم يكن منها إلا أنهما كليهما تصدیا للكلام على أدباء عصرهما وشعرائه لكفى ؛ نقول ما دام الأمر كذلك كان جميلا بنا أن نردف ترجمة الفتح بترجمة ضريبه ابن بسام ....

وسيمر بك قريباً ما تتعرف به سبب ذكرنا الشاعر أبا مروان الطُّبْنى مع ابن بسام فى ترجمة واحدة ....

« ثم وأما بعد » فانا إلى هذه اللحظة التى نترحم فيها لابن بسام لم نعثر لأحد على ترجمة قد عقدها له وأفردها للقول عليه ، وإن كان مؤرخو الأندلس وغير مؤرخى الأندلس كثيراً ما ينقلون عن هذا الأديب كعمدة لهم ، وتَبِعَت فيما يعالجون من تاريخ أدباء الأندلس ، حتى أن المقرى ذكره فى نحو من أربعين موضعاً من نفح الطيب ولم يفرد له على ذلك ترجمة ، وكذلك كثيراً ما ينقل عنه ابن خلكان وغير ابن خلكان ....

ومن غريب الأمر فى هذا الباب ، ومن سوء حظ الأديب ، بل من تخبط الناس فى أمره ، أنك ترى النسخ المخطوطة للذخيرة فى دار الكتب سواء أكانت المكتوبة بخط مغربى أم المنقولة عنها بخط مصرى قد غُمَّ على ناسخها وشبه له واختلط الليل بالنهار ، فظنوا أن صاحب الذخيرة هو ابن بسام المعروف بالبَسَّامى الشاعر الهجاء البغدادى المتوفى سنة ثلاث وثلثمائة ، ونقلوا ترجمة هذا الشاعر من ابن خلكان كما وألصقوها بصاحب الذخيرة ، وصدق فيهم بهذا التخبط الأمر قول عمر بن أبى ربيعة :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرَكَ الله كيف يلتقيان
هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

وأمتدُّ من هذا فى باب التخبط والتخليط أن خطبة الذخيرة الحقيقية كما سيمر بك [1] .. وقد مر على ماضى فهرس الكتب هذا التخليط فلم يتفطنوا اليه ، وظنوه صحيحاً ، وأن الذخيرة هى لابن بسام المعروف بالبسامى الشاعر الخ الخ وقد نتفاً من هذه الخطبة المفتعلة ، وإن كان لهم فى هذا الصنيع معذرة ... « وبعد » فانا على هذا كله سنقدم اليك صورة مصغَّرة لهذا الأديب الأندلسى العظيم لقد التقطنا أجزاءه من ههنا وههنا

* * *

أزلفنا فى ترجمة الفتح أن أبا الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة كان فى زمن الملثمين — يوسف بن تاشفين وأولاده — ونزيدهنا أن حياته امتدت إلى أيام أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على رأس دولة الموحدين الذين أديل لهم من الملثمين وآضوا بذلك ملوك المغرب والأندلس ، إذ جاء فى نفح الطيب [2] ما نصه « وتأخرت وفاته — أى وفاة ابن بسام — الى سنة ٥٤٢ » ويبدو من هذا أن ابن بسام عاش بعد الفتح بن خاقان نحواً من سبع عشرة عاماً ...

* * *

ولد ابن بسام فى شنترين وهى بلدة من الكُوَر الغربية البحرية من أعمال بطليوس ، ومن ثم يقال له الشَّنْتَرِينى ومن مؤرخى الأندلس من يقول الشَّنْتَمَرِى نسبة الى بلد

Grancher ، وكانا من أحبابه ونُصرائه ، وكانا فى معمله فرأيا فيه كيف استطاع أن يخلص الكلاب من بلواها بعد أن عضتها كلاب مسعورة عضاً شديداً ، وفى المساء ذهبا معه إلى الطفل فلما رأى الطبيبان جروحه عابسة متقيّحة ألحّ على بستور أن يقوم بتلقيحه توّاً . قال : « قم يا رجل وابدأ علاجك ، فانك إن لم تفعل مات هذا الغلام لا محالة »

وفى هذه الليلة ، الليلة السادسة من يوليو عام ١٨٨٥ ، حُقنت أولُ حقنة من اقاح الكلب فى آدمىّ ، وقضى الطفل أربعة عشر يوماً أخذ فيها أربع عشرة حقنة من ابرة تحت الجلد فلم يصبه سوء ، ثم عاد إلى الالتراس فلم يأته بعد ذلك عرض من أعراض هذا الداء المخوف أبداً

فى العدد القادم : آخر مقال عن بستور — أحمد زكى

---

(١) وسيمر بك أيضا أن الفصل هو جانب من هذه الخطبة وهو شطرها الأول (٢) ج ، ص ٣٠٩ طبع أوربة

لس فى الشمال الشرق لقرطبة يقال لها شنت مَرِيَه [1]
ى سريم المقدسة) ، وفى هذه البلدة يقول الأديب النحوى
محمد بن السيد البطليوسى :

كرت الدنيا لنا بعد بُعدكم
وحفّت بنا من معضل الخطب ألوان
نبت بنا فى أرض شنت مَرِيَة
هواجس ظن خان والظنُّ خوّان
علنا سوامَ الحمد عنها لغيرها
فلا ماؤها صدًّا ولا النبتُ سعدان [2]

ولم يحدثنا المؤرخون عن مولده ونشأته ، ولا عن مشيخته كيف تم ، فلا علينا إذا نحن تخطينا هذا واكتفينا بالكلام عليه من ناحية منزلته الأدبية وإيراد شىء من منظومه ومنثوره القول على أثره الخالد كتاب الذخيرة ...

كان أبو الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة أديبا كاتبا شاعرا ، وكان المنثور أغلب عليه من المنظوم ، مثله فى ذلك مثل الفتح ، فكان منثوره فائقاً بارعاً جميلا وإن كان يغلب عليه السجع كسائر معاصريه ، أما شعره فقد كان دون نثره . ومما عثرنا عليه من شعره أبيات أوردها العالم الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندى الأندلسى المتوفى سنة ٦٢٩ فى رسالته البديعة التى يفضل فيها الأندلس وأهل الأندلس على بر العُدوه ـ مراكش ـ وأهل بر العدوه ، قال الشقندى : وهل منكم من يقول مناديا لنديمه ، وقد باكر روضا بمحبوب وكأس ، فألفاه قد غلى محاسنه شباب نخاف أن يكسل نديمه عن الوصول إذا رأى ذلك وهو أبو الحسن بن بسام :

ألا بادر فلا ثانٍ سوى ما عهدت الكأس والبدر التمام
ولا تكسل برؤيته ضبابا تغص به الحديقة والمدام
فان الروض ملثم إلى أن توافيه فينحط اللثام

وجاء فى نفح الطيب ما نصه : « وقال أبو الحسن على بن بسام صاحب الذخيرة ، وشهرته تغنى عن ذكره ، ونظمه دون نثره ، يخاطب أبا بكر بن عبد العزيز :

أبا بكر المجتبى للأدب ورفيع العماد قريع الحسب
أيلحن فيك الزمان الخؤون ويُعرب عنك لسان العرب
وان لم يكن أفقُنا واحدا فينظمنا شمل هذا الأدب

أصدقتَ أن منظومه دون منثوره ! إذن لا تتوقع من ابن بسام الأديب الكاتب شعراً من النسق الأعلى ، وهكذا شأن أكثر الكتاب كما نبهنا إلى ذلك فى كلامنا على الفتح بن خاقان ؛ وكذلك ترى أكثر الشعراء المحول لا يجيدون المنثور ، وأظنك لا تجهل ما أورده العلامة ابن خلدون فى مقدمته شرحاً لهذه الظاهرة : ويبدو لنا ان لابن بسام شعرا كثيرا فى أكثر أبواب الشعر لم يتيسر لنا الوقوف عليه ، يدل على ذلك تلك الأبيات التى يقولها الشاعر الوشاح الأندلسى أبو بكر بن عبادة القَزّاز فى ابن بسام وهى :

يا منيفاً على السماكين سامى حزت خصل السباق عن بسام
إن تحك مدحة فأنت زهير أو تشبب فعروة بن حزام
أو تباكر صيد الملا فابن حجر [1] أو تبكى الديار فابن خذام [2]
أو تذم الزمان وهو حقيق فأبو الطيب البعيد المرامى

وعلى هذا فلنضرب عن ابن بسام الشاعر ، ولنعرض لابن بسام الكاتب ولأثره الفذ الخالد كتاب الذخيرة . . .

* * *

نقول إن ابن بسام يمتاز من الفتح بأشياء : أهمها أنك لا ترى فى أسلوبه ذلك التقعّر وتلك الطنطنة التى تراها فى أسلوب الفتح ، وإنما ترى أسلوباً عادئا متزنا رصينا جميلا ، . وأنك ترى ابن بسام ناقدا بارعا كثيرا ما يُعقّب على ما يختار تعقيبا يدل على تمكنه ورسوخه فى الأدب ، ومن ثم كان أكثر من الفتح تقييدا ، وعلما مفيدا ، . وأنك تراه أعفّ لسانا ، وأنزه بيانا من الفتح ، فلا ترى منه ذلك الاقذاع الذى تراه من الفتح ، واليك نموذجا من تراجمه هو مصداق لما نقول ، وهو ترجمته للشاعر الأندلسى أبى مروان عبد الملك بن زيادة الله الطُبْنى [3]

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقى

(١) هو امرؤ القيس (٢) شاعر جاهلى قديم قال امرؤ القيس عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

(٣) الطبنى نسبة الى طبنة . قال ياقوت : بلدة فى طرف أفريقية مما يلى المغرب على ضفة الزاب فتحها موسى بن نصير . . الى أن قال وينسب اليها أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطبنى شاعر أديب لغوى الخ

(١) Saint merry (٢) صداء بئر ليس عند العرب ماء أعذب من مائها . وفى المثل ماء ولا كصداء ، والسعدان نبت ينبت فى سهول الأرض من أطيب مراعى الابل وفى المثل مرعى ولا كالسعدان